صلة الأخلاق بالعقيدة

الأستاذ الدكتور/ أحمد بن عثمان المزيد
أستاذ الدراسات الإسلامية ــ جامعة الملك سعود

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وبعد..

فإن الأخلاق الفاضلة، والسلوك المستقيم، وتزكية النفوس هي من أعظم أمور الإسلام، ومن أعلى خصاله ودرجاته؛ وهي مُجْلبةٌ لمحبة النبي صلى الله عليه وسلم والقرب من مجلسه في الجنة؛ كما ثبت عنه في الحديث: "إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا"[1]؛ ذلك أن السلوك الظاهري للمسلم ملازم لاعتقاده وديانته، وصلاح الظاهر دليل على صلاح الباطن، والعكس صحيح.

وقد دلَّت نصوص الكتاب والسنة على الصلة الوثيقة بين الأخلاق والسلوك، والقيم والممارسات وبين العقيدة والإيمان، وبل والديانة برمتها، وجعلت الشريعة الغرَّاء مفردات هذه الأخلاق دليلاً وبرهاناً على صحة الإيمان وكماله وقوته.

ولقد فهم سلفنا الصالح رضي الله عنهم وأئمة هذا الدين هذه المسألة "**صلة الأخلاق بالعقيدة**" فأولوها عنايتهم علمًا وعملا؛ نجد ذلك بارزًا فيما صنَّفوه من كتب العقيدة وشُعَب الإيمان؛ فنالت حظًا وافرًا؛ بما يتجلَّى معه تلك الصلة التامة بين أخلاقيات الإسلام وعقيدته، بين سلوكياته وشعبه الإيمانية.

كما برزت مواقف أئمة المسلمين ومدى تحليهم بهذه الأخلاق الجليلة في دعوتهم وتعليمهم، وتعاملاتهم مع المسلمين ومع غير المسلمين، مع الأصدقاء والأعداء؛ وليس

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، حديث رقم (٢٠١٨)، وأحمد في مسنده (١٨٩/٢). وقال الترمذي: حسن غريب.

ذلك إلا اقتداءً بصاحب الخلق العظيم، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، واتِّباعًا لأصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

إن مجتمعاتنا اليوم تعاني بلا شكٍّ أزمة أخلاقية قيمية، على نحو مُتَفَشٍّ في مجالات الحياة؛ السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والمهنية، والإعلامية...إلخ، هذه الأزمة التي نعيشها ويعيشها العالم بأسره مبعثها الرئيس: هو عدم التخلق بأخلاق الإسلام.

- **مشكلة البحث:**

ضعف الجانب الأخلاقي في مجتمعاتنا الإسلامية له عددٌ من الأسباب، من أهمها: "غياب الصلة بين الأخلاق والعقيدة" عند شبابنا وشاباتنا خصوصًا، مما يستلزم إبراز الصلة الوثيقة بين الأخلاق والعقيدة، لتقوية الوازع الإيماني في النفوس، وتعزيز مكانة الأخلاق الإسلامية، مع بيان منزلتها في الدين، وعظيم ثوابها، وكونها عبوديةً لله رب العالمين، وليست عاداتٍ تُتبع، أو تقاليد تُقتفى!

- **أهمية البحث وسبب اختياره:**

تتجلى أهمية البحث من خلال الأمور التالية:

١ــ بيان التلازم بين الأخلاق والاعتقاد؛ فالانحراف الأخلاقي الحاصل اليوم إنما هو ناشئ عن ضعف في العقيدة، ووهن في الإيمان.

٢ــ إبراز عظم الجزاء المترتب على التخلق بأخلاق الإسلام، وكونه مُفضٍ لاجتلاب محبة الله تعالى، ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، والقرب منه في الفردوس الأعلى.

٣ــ التزام الجانب الأخلاقي للإسلام مجالٌ فسيح للدعوة إلى دين الله سبحانه، وبيانٌ لوجه الإسلام المشرق، خاصة في ظلِّ الظروف الراهنة للأمة الإسلامية؛ حيث تعاني الأمةُ من قصورٍ في جانب الدعوة للإسلام تصريحًا؛ فكم دخلت أمم في الإسلام لِما رأوا من أخلاق المسلمين، وأخلاق تُجَّارِهم.

٤ــ عناية السلف الصالح وأئمة المسلمين بالجانب الأخلاقي، وإعطائه مساحة رحبة في كتب العقيدة، وإفرادهم كتبًا مستقلة لها؛ مما يؤكد وثاقة الصلة بين الأخلاق والعقيدة.

- **منهجية البحث:**

اعتمد البحث في إبراز الصلة بين الأخلاق والعقيدة على استقراء نماذج من النصوص الواردة في أخلاقيات الإسلام؛ كالإخلاص، والمحبة، والحياء، والبرِّ وربطها بالإيمان، مع تبيان تلك الصلة من شروحات كتب الحديث، والعقيدة.

ولتأكيد تلك الصلة يتناول البحث لمحاتٍ من كتب العقيدة للمتقدمين من أئمة الإسلام؛ كالإمام أحمد، والصابوني، والبربهاري، والطحاوي، وابن تيمية رحمهم الله أجمعين، وما سطروه عن أخلاق أهل السنة وارتباطها بالعقيدة النقية الصافية.

- **خطة البحث:**

للإحاطة بموضوع البحث وهو "**الصلة بين الأخلاق والعقيدة**" تضمن البحث: مقدمة، وتمهيدًا، وثلاثة مباحث، وذلك على النحو التالي:

المقدمة، وفيها: مدخلٌ عام لموضوع البحث، ومشكلته، وأهميته وسبب اختياره، وخطته.

التمهيد: وفيه: التعريف بالعقيدة لغةً واصطلاحًا، والتعريف بالأخلاق لغةً واصطلاحًا.

المبحث الأول: مكانة العقيدة والأخلاق في الإسلام، والصلة بينهما.

المبحث الثاني: نماذج من أخلاقيات الإسلام وصلتها بالعقيدة.

المبحث الثالث: عناية أئمة السلف بالأخلاق في كتب العقيدة.

المصادر والمراجع.

تمهـيـد

أولًا: تعريف العقيدة لغةً واصطلاحًا:

١ــ تعريف العقيدة لغةً:

مصدر من "العقد" وهو الربط والشدُّ بقوة، ومنه الإحكام والإبرام، والتماسك، والمراصَّة، والإثبات والتوثُّق، ويقال: عقده يعقده عقدًا، ومنه: عُقدة اليمين والنكاح، قال تعالى: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ} [المائدة:٨٩].

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ): "العين والقاف والدال: أصلٌ واحدٌ يدلُّ على شَدٍّ وشِدّةٍ وُثوق، وإليه ترجعُ فروعُ البابِ كلها"[١].

ومنه الاعتقاد، وهو مصدر من "اعتقد" كذا: إذا اتخذه عقيدةً له؛ بمعنى عقد عليه الضميرَ والقلبَ، ودان لله به، وأصله من عقد الحبل، ثم استعمل في التصميم والاعتقاد الجازم[٢].

أي: "الحكم الذهني الجازم، يقال: اعتقدت كذا؛ بمعنى: جزمت به في قلبي، فهو حكم الذهن الجازم؛ فإن طابق الواقع فصحيح، وإلا ففاسد"[٣].

فقد أفادت جل مشتقات لفظة "عقد" من خلال استعمالاتها في المعاجم اللغوية معانيَ متعددة؛ منها: الشدُّ والربط، والتأكيد والتوثيق، سواء في الأمور الحسية كعقد الحبل، أو الخيط إذا اشتدَّ، أو في الأمور المعنوية؛ كعقد البيع والنكاح والعهد.

٢ــ تعريف العقيدة اصطلاحًا:

"هي الإيمان الجازم بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبكلِّ ما جاء في القرآن الكريم، والسنة الصحيحة من أصول الدين، وأموره، وأخباره، وما أجمع عليه السلف الصالح، والتسليم لله تعالى في الحكم، والأمر، والقدر، والشرع، ولرسوله بالطاعة والتحكيم والاتباع"[٤].

---

[١] معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون (٨٦/٤)، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ.

[٢] ينظر: شرح العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تأليف العلامة: محمد خليل هراس، راجعه: الدكتور عبد الرزاق عفيفي (١٣)، من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط٤، د.ت.

[٣] شرح العلامة ابن عثيمين على لمعة الاعتقاد، لابن قدامة المقدسي (٢٩)، وشرح العقيدة الواسطية لابن تيمية لابن عثيمين، خرج أحاديثه: سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط٦، ١٤٢١هـ.

[٤] مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة، وموقف الحركات الإسلامية المعاصرة منها، د. ناصر بن عبد الكريم العقل، (١٧)، دار الوطن للنشر، ط١، ١٤١٢هـ.

والعقيدة الإسلاميَّة إذا أُطلقت فهي عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة؛ لأنَّها هي الإسلام الذي ارتضاه اللّه دينا لعباده، وهي عقيدة القرون الثلاثة المفضَّلة من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان[1].

ثانيًا: تعريف الأخلاق لغةً واصطلاحا:

١ــ تعريف الأخلاق لغةً:

قال ابن فارس: "الخاء واللام والقاف أصلان: أحدهما تقديرُ الشيء، والآخرُ مَلاسَة الشيء، ومن ذلك الخُلُق، وهي السجيَّة، لأنّ صاحبَه قد قُدِّر عليه. والخَلاقُ: النَّصيب؛ لأنّه قد قُدِّرَ لكلِّ أحد نصيبُه، وأمّا الأصل الثاني: فصخرة خَلْقَاء، أي مَلْساء"[2].

وبنحو ذلك قال الفيروز آبادي (ت٨١٧هـ) في القاموس المحيط: "والخُلُقُ بالضم وبضمَّتَيْنِ: السَّجيَّةُ والطَّبعُ والمروءةُ والدين، والأخْلَقُ: الأملسُ المُصْمَتُ والفقير"[3].

أما الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢ هـ)، فقد فرَّق بين الخَلْق بالفتح والخُلُق بالضمة مع كون أصلهما واحد فقال: "الخَلْقُ والخُلْقُ في الأصل واحد، لكن خُصَّ الخلق بالهيئات والأشكال والصُّور المدركة بالبصر، وخصَّ الخلق بالقوى والسَّجايا المدركة بالبصيرة"[4].

أما ابن منظور (ت٧١١ هـ) فقد زاد في تعريفه اللغوي للأخلاق؛ مما قربه لأن يكون تعريفاً اصطلاحيا، فقال:

"الخُلُقُ بضم اللام وسكونها وهو الدِّين والطبْع والسجية، وحقيقته: أنه لِصورة الإنسان الباطنة؛ وهي نفْسه وأَوصافها ومعانيها المختصةُ بِها، بمنزلة الخَلْق لصورته الظاهرة وأَوصافها ومعانيها، ولهما أَوصاف حسَنة وقبيحة، والثوابُ والعقاب يتعلّقان بأَوصاف الصورة الباطنة أَكثر مما يتعلقان بأَوصاف الصورة الظاهرة"[5].

٢ــ تعريف الأخلاق اصطلاحًا:

يُعرِّف ابن مسكويه (ت٤٢١ هـ) الأخلاق بأنها: "حالٌ للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعيًّا من أصل

---

[1] الوجيز في عقيدة السلف الصالح، عبد الحميد الأثري (٣).

[2] معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (٢١٣/٢).

[3] القاموس المحيط، للفيروز آبادي (٨١٧)، دار الفكر.

[4] المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان(٢٩٧)، دار القلم الشامية، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ.

[5] لسان العرب، لابن منظور، مادة (خلق)، دار صادر، بيروت.

المزاج؛ كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب، ويهيج من أقل سبب، وكالإنسان الذي يَجبُنُ من أيسر شيء...، ومنها ما يكون مستفادًا بالعادة والتدرّب، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر أولا فأولا حتى يصير ملكة وخلقا"[١].

أما الماوردي (ت٤٥٠ هـ) فقال الأخلاق: "هي غرائز كامنة تظهر بالاختيار، وتقهر بالاضطرار"[٢].

وقال القرطبي (ت٦٧١ هـ): "الأخلاق أوصاف الإنسان التي يعامل بها غيره، وهي محمودة ومذمومة، فالمحمودة على الإجمال: أن تكون مع غيرك على نفسك؛ فتتصف منها ولا تتصف لها، وعلى التفصيل: العفو والحلم، والجود، والصبر وتحمل الأذى، والرحمة والشفقة، وقضاء الحوائج والتوادد ولين الجانب، ونحو ذلك، والمذموم منها ضد ذلك"[٣].

أما شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) رحمه الله فقد سلك في تحديد مفهوم الأخلاق منهجا يختلف عمن سبقه من العلماء، مما جعله أكثر نضجًا في هذا المضمار، كما يظهر ذلك من دراسة "النظرية الخلقية عند ابن تيمية"، حيث ربط الأخلاق بمفهوم الإيمان، وما ينبثق عنه، وذكر أنه يقوم على عدة عناصر، هي:

١- الإيمان بالله وحده خالقًا، ورازقًا بيده الملك (توحيد الربوبية).

٢- معرفة الله سبحانه وتعالى، معرفة تقوم على أنه وحده سبحانه المستحق للعبادة (توحيد الألوهية).

٣- حبُّ الله سبحانه وتعالى حبًّا يستولي على مشاعر الإنسان؛ بحيث لا يكون ثمة محبوب مراد سواه سبحانه.

٤- وهذا الحب، يستلزم أن يتجه الإنسان المسلم نحو هدف واحد هو تحقيق رضا الله سبحانه، والالتزام بتحقيق هذا الرضا في كل صغيرة وكبيرة من شئون الحياة.

٥- وهذا الاتجاه يستلزم من الإنسان سموًّا عن الأنانية وعن الأهواء، وعن المآرب الدّنيا؛ الأمر الذي يتيح له تحقيق الرؤية الموضوعية والمباشرة لحقائق الأشياء، أو الاقتراب منها، وهذه شروط جوهرية في الحكم الخلقي.

---

[١] تهذيب الأخلاق لابن مسكويه (٤، ٥) ، دار الكتب العربية، بيروت، ط ٢، ١٤٠١ هـ- ١٩٨١م.

[٢] تسهيل النظر وتعجيل الظفر ، للماوردي، تحقيق د. محيي هلال السرحان (٥)، بيروت، ١٩٨٣م.

[٣] نقلها عنه ابن حجر في فتح الباري، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب، رقَّم أحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي (٤٥٦/١)، دار الفكر، د.ت.

٦- وعندما تتحقق الرؤية المباشرة والموضوعية للأشياء والحقائق، يكون السلوك والعمل خُلُقًا من الدرجة الأولى.

٧- وعندما يكون العمل خُلُقًا من الدرجة الأولى، نكون ماضين في طريق تحقيق، أو بلوغ الكمال الإنساني[١].

ـ وقد عرف بعضُ الباحثين الأخلاق في نظر الإسلام بأنها عبارة عن: "مجموعة المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني التي يحددها "الوحي" لتنظيم حياة الإنسان، وتحديد علاقته بغيره، على نحو تحقيق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه"[٢].

ويتضح من هذا التعريف أن الأخلاق في نظر الإسلام هي جمع شامل في منظور متكامل بين مصدرها وطبيعتها ومغزاها الاجتماعي وغايتها.

وللنظام الأخلاقي في الإسلام طابعان مميزان:

الأول: طابع إلهي؛ من حيث أنه مراد لله، إذ أنه يجب أن يتبع الإنسان في هذه الحياة رغبة الله في خلقه، ولذلك جاء الوحي بصورة هذا النظام.

الثاني: طابع إنساني؛ من حيث إن هذا النظام عام في بعض نواحيه يتضمن المبادئ العامة، وللإنسان دوره في تحديد واجباته الخاصة، والتعرف على طبيعة مظاهر السلوك الإنساني المعبرة عن القيم؛ لذا تعد الأخلاق روح الإسلام[٣].

---

[١] ينظر: النظرية الخلقية عند ابن تيمية، محمد عبد الله عفيفي، (٥٨ ـ ٥٩)، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ط ١، ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨م.

[٢] التربية الأخلاقية، مقداد يالجن (٧٥)، رسالة دكتوراه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٧٧م.

[٣] موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، إعداد مجموعة من المختصين، بإشراف: صالح بن حميد، عبد الرحمن ملُّوح (٦٦ ـ٦٧)، دار الوسيلة، ط١، ١٤١٨هـ.

المبحث الأول

مكانة العقيدة و الأخلاق في الإسلام والصلة بينهما

أولا: مكانة العقيدة في الإسلام:

إن العقيدة الإسلامية لهي ضرورة من ضروريات الإنسان التي لا غنى لـه عنهـا، إذ الإنسان ميالٌ بفطرته إلى معبود وخالق يلجأ إليه، يعتقد فيه القوة والعزة والسند الـدائم، ومن ثمة تأتي ضرورة فهمها وربطها بما تحتها من معانٍ، ومن ذلك[١]:

١ــ أنها تجعل المسلم يعظِّمُ نصوص الكتاب والسنة، وتعـصمه مـن ردِّ معانيهـا، أو التلاعب في تفسيرها.

٢ــ أنها تربط المسلم بالسلف الصالح من الصحابة ومن تبعهم، فتزيـده عـزةً وإيمانًـا وفخارًا وأخلاقًا، فهم سادة الأولياء، وأئمة الأتقياء، وخير هذه الأمة وأبرها قلوبـا كمـا روي عن ابن عمر[٢].

٣ــ أن معرفة عقيدة سلفنا الصالح معرفة صحيحة تمكن الإنسان من تبيُّن حقيقة واقـع الصراعات الأيديولوجية اليوم، وما يرافقها من تحريف، أو استخفاف أو إخلال بـبعض أصولها ومستلزماتها والتقصير فيما يجب نحوها فهما وتطبيقا، وهذه المعرفة تقوي فـي المسلم عناصر الممانعة والصدِّ لكل أشكال الغزو المتمثلة فـي الفلـسفات والنظريـات المعاصرة المعادية للإسلام[٣].

٤ــ أن العقيدة أساس الدين، والدين الإسلامي وحدة متكاملة تغطي جميع فترات المـسلم منذ ولادته وحتى مماته، ثم ما يصير إليه بعد موته، لذلك فمتى "رسـخت فـي الفـرد استقام سلوكه في حياته[٤]".

٥ــ أنها أصل في الأعمال؛ فصلاح العقيدة يورث صلاح العمل، فهي تقدم للإنسان كل ما يجب عليه معرفته في حق الله تعالى حتى يبلغ كمال المحبـة، ومنـه إلـى كمـال الإخلاص لله تعالى.

---

[١] ينظر: شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية، تأليف العلامة محمد خليل هرَّاس (٦ــ٧).

[٢] ينظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم الأصفهاني (٣٠٥/١)، طبعة دار الفكـر، بيـروت، لبنان، د.ت.

[٣] ينظر: الفلسفة بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية، د. مصطفى حلمي (٨)، دار الدعوة للنشر والتوزيـع، الإسكندرية، مصر العربية، ط٢، ١٤١١هـ.

[٤] العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنكة الميداني (٨)، دار القلم، بيروت، لبنان، ط٢، ١٣٩٩هـ.

بهذا وغيره يتبين مدى حاجة العباد إلى تعلم العقيدة، وأنه فوق كل حاجة، وأن ضرورتهم إليه فوق كل ضرورة؛ لأنه لا حياة للقلوب ولا نعيم ولا طمأنينة إلا بأن تعرف القلوب ربها، ومعبودها؛ بأسمائه وصفاته وأفعاله، وما يجب له وما ينزه عنه[1]، ويكون مع ذلك كله أحب إليها مما سواه، ويكون سعيها فيما يقربها إليه، وكلما كانت معرفة العبد بربه صحيحة تامة كان أكثر تعظيما واتباعا لشرع الله وأحكامه، وأكثر تقديرا للدار الآخرة.

وإذا انطبعت هذه المعاني العظيمة؛ من العلم بالله وتوحيده ومحبته وخشيته وتعظيم أمره ونهيه، والتصديق بوعده ووعيده، سعد العبدُ في الدنيا والآخرة، وسعد مجتمعه معه؛ ذلك أن صلاح سلوك الفرد تابع لصلاح عقيدته وسلامة أفكاره، وفساد سلوك الفرد تابع لفساد عقيدته وانحرافها؛ وإلى هذا يشير الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"[2].

ولذلك كانت الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك ووسائله هي القضية الأولى التي جاء ذكرها في القرآن الكريم بين الرسل وأممهم، قال تعالى مخبرا عما أرسل به جميع الرسل، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل:٣٦].

ـ يقول الإمام ابن القيم (ت ٧٥١ هـ) رحمه الله تعالى: "التوحيد ألطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه، فأدنى شيء يخدشه ويدنسه ويؤثِّر فيه، فهو كأبيض ثوب يكون، يؤثِّر فيه أدنى أثر، وكالمرآة الصافية جدًا، أدنى شيء يؤثر فيها؛ ولهذا تشوشه الحظة واللفظة والشهوة الخفية، فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده، وإلا استحكم وصار طبعًا يتعسَّر عليه قلعه"[3].

---

[1] شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (٩)، مطبوعات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤١٨هـ، بتصرف يسير.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم (٥٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم (١٥٩٩).

[3] الفوائد، لابن القيم (١٩٥)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٣هـ.

وإذا تأملنا القرآن الكريم وجدنا أن أغلبه في تقرير العقيدة وتقرير أصولها، وتحرير العبادة والطاعة لله وحده لا شريك له، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم:

- فأول شيء نزل به القرآن وأمر اللهُ تعالى رسولَهُ صلى الله عليه وسلم أن يفعله هو أن يكبَّر الله تعالى ويعظمه وحده، وأن ينذر الناس من الشرك، وأن يتطهر من الآثام والذنوب وغيرها، ويهجر ما هم عليه من عبادة الأصنام، ويصبر على ذلك كله، قال الله تعالى:{ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ. وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ. وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} [المدثر: ١ – ٧].
- ثم استمر القرآن الكريم يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم سائرَ العهد المكي، لتثبيت العقيدة وتقريرها، والدعوة إلى إخلاص العبادة والدين لله وحده، و اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم.
- كذلك نجد أن أغلب آيات القرآن الكريم في العقيدة: إما بصريح العبارة، وإما بالإشارة، حيث إن معظم القرآن جاء في تقرير توحيد الألوهية وإخلاص العبادة لله وحده، وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، وأصول الإيمان والإسلام، وأمور الغيب والقدر خيره وشره، واليوم الآخر، والجنة وأهلها ونعيمها، والنار وأهلها وعذابها، وأصول العقيدة تدور على هذه الأمور.

ثانيًا: مكانة الأخلاق في الإسلام:

إن أمر الأخلاق في شِرْعة الإسلام عظيم شأنه، عاليةٌ مكانتُهُ ومنزلتُهُ، بلغ به الحال في الاهتمام والكمال، أَنْ كان قرينَ العقيدة في تنزل القرآن فيه، وأنْ كان أحد الأصول الأربعة التي يقوم عليها ديننا الحنيف، والتي هي: (الإيمان، والأخلاق، والعبادات، والمعاملات)، ولذلك كثر تنزل القرآن الكريم بالتشريعات الأخلاقية خاصة القسم المكي منه؛ بحيث بلغت الآيات في هذا الجانب نحو ألف وخمسمائة، وذلك نحو ربع القرآن الكريم كله[١].

يقول العز بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ) رحمه الله: "ومعظم آي القرآن لا يخلو عن أحكام مشتملة على آداب حسنة، وأخلاق جميلة، جعلها الله نصائح لخلقه، مقربات

---

[١] ينظر: أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، د. عبد الحميد الصيد الزنتاني (٦٨٥)، وقد جمع كثيرًا من هذه الآيات د. محمد عبد الله دراز في آخر كتابه "دستور الأخلاق في فصل الأخلاق العملية، وسبقه إلى ذلك الإمام الغزالي في كتابه "جواهر القرآن" الذي جمع فيه ما يربو على ألف وخمسمائة آية من الآيات المتعلقة بالمعرفة، والآيات المتعلقة بالسلوك.

إليه مزلفات لديه رحمة لعباده؛ فطوبى لمن تأدب بآداب القرآن، وتخلق بأخلاقه الجامعة لخير الدنيا والآخرة"[1].

فنجد الأوامر والنواهي الحاثة على التخلي عن رذائل الأخلاق والتحلي بمكارمها، والإشادة بمكارم الأخلاق، وذم مساوئها، في آياته المتكررة وسوره المتتالية المكية والمدنية؛ ابتداءً من أول تنزل القرآن في صدر سوره العلق التي أمرت بالقراءة، ونوهت بالعلم وأشادت بالكرم الإلهي، والقراءةُ والعلم من أسس تنمية الأخلاق وإذكائها في النفس البشرية، وأما الكرم فهو عنوان على الفضل والجود والسخاء الذي لا يبارى، وهذه معاني خلقية واضحة.

واختتامًا بآخر الآيات تنزلا، وهي قوله تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ} [البقرة:٢٨١]؛ حيث أمرت بالتقوى التي هي الأصل الأول لأخلاق الإسلام الفردية والاجتماعية، السلوكية منها والتعاملية؛ إذ منها ينبع كل خلق نبيل، وبها يكف عن كل خلق رذيل[2].

وهذا فيه دلالة على سمو الأخلاق في هذه الملة الحنيفية المرتضاة من رب العالمين.

وقد أخبر الله تعالى في كتابه المجيد أن بعثة نبيه صلى الله عليه وسلم مهمتها بعد تقرير الوحدانية له سبحانه وترسيخ الجذور الإيمانية كانت لغرض التزكية الروحية، وتهذيب الأنفس البشرية، وإصلاح سلوك الإنسانية:

ـ قال جل ذكره: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} [البقرة:١٥١].

يقول العلامة السعدي (ت١٣٧٦هـ) رحمه الله: "{وَيُزَكِّيكُمْ} أي: يطهر أخلاقكم ونفوسكم، بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتزكيتكم من الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق،

---

[1] الإمام في بيان أدلة الأحكام، لعز الدين بن عبد السلام، تحقيق: رضوان مختار بن غربية (٢٨٤)، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.

[2] ينظر: أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في الكتاب والسنة، أحمد عبد العزيز الحداد (١٥ ـ ١٦)، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، ١٤١٣هـ.

ومن التباغض والتهاجر والتقاطع، إلى التحابِّ والتواصل والتوادد، وغير ذلك من أنواع التزكية"[١].

ــ وقال سبحانه: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [آل عمران:١٦٥].

قال ابن كثير (ت٧٧٤هـ) رحمه الله: "{وَيُزَكِّيهِمْ} أي: يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر؛ لتزكُوَ نفوسهم وتطهر من الدَّنَسِ والخَبَث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم"[٢].

ــ كما تتضح مكانة الأخلاق ومنزلتها في شريعة الإسلام من خلال ما أوضحه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طبيعة رسالته وغايتها، وذلك فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنما بُعثتُ لأتمم صالح الأخلاق"[٣].

ــ وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم لصاحب الخلق مكانا عليا في الجنة؛ إذ يقول صلى الله عليه وسلم: "إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة: الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون"[٤].

---

[١] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق (٧٤)، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ.

[٢] تفسير القرآن العظيم، لابن كثير الدمشقي، سامي بن محمد سلامة (١٥٨/٢)، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ.

[٣] أخرجه أحمد في المسند (٣٨١/٢)، ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨/٩)، والخرائطي في مكارم الأخلاق برقم (١)، وإسناده حسن، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٤)، والحاكم في المستدرك (٦١٣/٢)، وقال: صحيح على شرط مسلم وسكت عنه الذهبي.

[٤] والثرثارون: هم الذين يكثرون الكلام تكلفا، وخروجا عن حد الواجب، والمتشدقون: هم الذين يتكلمون بملء أفواههم تفاصحا وتعاظما، والمتفيهقون: هم الذين يتنطعون في كلامهم ويتوسعون فيه.
والحديث أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، حديث رقم (٢٠١٨)، وأحمد في مسنده (١٨٩/٢). وقال الترمذي: حسن غريب.

ــ وقال صلى الله عليه وسلم: "ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله يبغض الفاحش البذيء"[١].

ــ وللمكانة العظيمة للأخلاق جعلها النبي صلى الله عليه وسلم قرينة التقوى في أكثر ما يدخل الناس الجنة، فعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عن أكثر ما يُدخل الناسَ الجنة؟ فقال: "تقوى الله وحسن الخلق، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال الفم والفرج"[٢].

ــ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن خياركم أحاسنكم أخلاقا"[٣].

ــ كما يُلحق رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل حسن الخلق بمن يُتعب نفسه في سهر الليالي بالقيام والأيام بالصيام وهو لم ينل شيئا من ذلك العناء، كلٌّ ذلك الفضل بحسن خلقه، فيقول عليه الصلاة والسلام: "إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم"[٤].

ــ وقد كان رسولنا صلى الله عليه وسلم يعهد إلى أصحابه ويوصيهم بحسن الخلق، فعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن"[٥].

قال ابن القيم رحمه الله: "جمع بين تقوى الله وحسن الخلق، وفسَّر ذلك بقوله: "لأنّ تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته"[٦].

وقال ابن رجب (ت٧٩٥ هـ) رحمه الله: "وقوله صلى الله عليه وسلم: (وخالق الناس بخلق حسن) هذا من خصال التقوى، ولا تتم التقوى إلا به، وإنما أفرده بالذكر

---

[١] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق، حديث رقم (٤٧٩٩)، والترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، حديث رقم (٢٠٠٢)، وقال: حسن صحيح.

[٢] أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، حديث رقم (٢٠٤).

[٣] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا، حديث رقم (٦٠٣٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه صلى الله عليه وسلم، حديث رقم (٢٣٢١).

[٤] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق، حديث رقم (٤٧٩٨)، وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة برقم (٥٠٨٢).

[٥] أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس، حديث رقم (١٩٨٧)، وقال عنه: حسن صحيح.

[٦] الفوائد، لابن القيم (٥٤).

للحاجة إلى بيانه؛ فإن كثيرًا من الناس يظن أن التقوى هي القيام بحق الله دون حقوق عباده، فنصَّ له على الأمر بإحسان العشرة للناس؛ فإنه كان قد بعثه إلى اليمن معلما لهم ومفقِّهًا وقاضيًا، ومن كان كذلك فإنه يحتاج إلى مخالقة الناس بخلق حسن ما لا يحتاج إليه غيره؛ مما لا حاجة للناس به ولا يخالطهم، وكثيرا ما يغلب على من يعتني بالقيام بحقوق الله والانعكاف على محبته وخشيته وطاعته وإهمال حقوق العباد بالكلية أو التقصير فيها، والجمع بين القيام بحقوق الله وحقوق عباده عزيز جدا لا يقوى عليه إلا الكمل من الأنبياء والصديقين"[١].

ـ وقد عدَّ علماء الإسلام الأخلاقَ أحد الأصول التي جاءت بها الشريعة؛ فقد قال الإمام الشاطبي (ت٧٩٠هـ) رحمه الله: "تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام:

أحدها: أن تكون ضرورية.

الثاني: أن تكون حاجية.

الثالث: أن تكون تحسينية، وتكلَّم رحمه الله عن معنى الضرورية والحاجية، ثم قال:

"وأما التحسينات، فمعناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب المدنسات التي تأنفها العقول الراجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق"[٢].

ـ ويقول الشنقيطي (١٣٩٣هـ) رحمه الله: "وقد أخذت قضية الأخلاق عامة، وأخلاقه صلى الله عليه وسلم خاصة محل الصدارة من مباحث الباحثين، وتقرير المرشدين، فهي بالنسبة للعموم أساس قوام الأمم، وعامل الحفاظ على بقائها، كما قيل:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقد أجمل صلى الله عليه وسلم البعثة كلها في مكارم الأخلاق في قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[٣]"[٤].

---

[١] جامع العلوم والحكم، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (١٨١)، دار المعرفة – بيروت، ١٤٠٨هـ.

[٢] الموافقات، للشاطبي، تحقيق: مشهور بن حسن (١٧/٤ ـ٢٠)، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ.

[٣] سبق تخريجه.

[٤] أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي (٢٤٨/٨)، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ.

ثالثا: الصلة بين الأخلاق والعقيدة:

إنَّ الدينَ كلَّهُ خُلُقٌ، بهذا فسَّر حبر الأمة عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما قوله سبحانه في مدح نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم:٤] فقال: "أي على دين عظيم"[١] فسمى الدين كلَّه خلقًا.

وذلك كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "لأن الدين هو الطاعة والعبادة والخُلُق، فهو الطاعة الدائمة اللازمة التي قد صارت عادة وخلقًا، بخلاف الطاعة مرةً واحدةً، قال: ولهذا فسَّر الدين بالعادة والخُلُق، ويفسَّر الخلق بالدين أيضا، كما في قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم:٤] ثم ذكر ما تقدم ذكره عن ابن عباس، قال: وذكره عنه سفيان بن عيينة، وأخذه الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة، وبذلك فسَّراه[٢].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ما خلاصته: إن الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب، ولابد فيه من شيئين: تصديق بالقلب، وإقراره ومعرفته، وهذا هو التوحيد، والآخر: هو عمل القلب: وهو التوكل على الله وحده ونحو ذلك من حب الله ورسوله، وحب ما يحبه اللّه ورسوله، وبغض ما يبغضه اللّه ورسوله، وإخلاص العمل للّه وحده، فكانت أعمال القلب من الحب، والإخلاص، والخشية، والتوكل، ونحوها داخلة في الإيمان بهذا المعنى، وكانت الأخلاق الكريمة داخلة فيه أيضًا.

وأما البدن فلا يمكن أن يتخلى عن مراد القلب؛ لأنه إذا كان في القلب معرفة وإرادة سَرَى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: "ألا وإن في الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحت صَلَح لها سائر الجسد، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ لها سائر الجسد، ألا وهي القلب"[٣][٤].

إن الإيمان بذلك هو مناط تكوين القيم والخلقية والاجتماعية ونحوها، وهو أيضا مصدر الإلزام الخلقي، لأنه المسيطر على كل غرائز الإنسان وشهواته، والمتحكم في أحاسيسه ودوافعه، إن الإيمان قول وعمل، والأخلاق الكريمة أقوال وأفعال لا تنفكُّ عن معنى

---

[١] أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٨/٢٩)، عنه وعن مجاهد، ونقل الشوكاني في فتح القدير (٢٦٧/٥) عن الواحدي حكايةَ هذا القول عن الأكثرين.

[٢] قاعدة في المحبة، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم (٣٢)، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، مصر، د.ت.

[٣] سبق تخريجه.

[٤] ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، دراسة وتحقيق: عبد الرحمن بن قاسم (١٨٦/٧)، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الإصدار الثاني، ١٤١٦هـ.

الإيمان، فالإيمان هو البرُّ والهدى والتقى والإسلام والبصيرة، وهو أيضا العلم النافع والعمل الصالح[١].

ــ وإن مما يميِّز الأخلاق في الإسلام أنها ترتكز على العقيدة والإيمان بكل أصوله؛ فمهما أتى الإنسان بكل خلق جميل، وسلوك نبيل لن يثاب عليه في الآخرة إلا إذا صلحت نيته، وابتغي به وجه ربه سبحانه، وإلا ففي الحديث الشريف يقول صلى الله عليه وسلم: "يقال للرجل ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان"[٢].

قال في تحفة الأحوذي: "(يقال للرجل) أي من أرباب الدنيا ممن له عقل في تحصيل المال والجاه، وطبع في الشعر والنثر وفصاحة وبلاغة، وصباحة، وقوة بدنية وشجاعة وشوكة؛ يمدحونه بكثرة العقل والظرافة، والجلادة، ويتعجبون منه، ولا يمدحون أحدًا بكثرة العلم النافع والعمل الصالح"[٣].

ذلك بأن العقيدة الإسلامية هي مصدر الإلزام الخلقي الذي لا يماثله مصدر آخر في القوة وإيجاب الخضوع والامتثال، والعقيدة الإيمانية أساس المسؤولية الأخلاقية عند الفرد والمجتمع، وبمعنى آخر: فالعقيدة الدينية (الإيمان) هي أساس قوي في النفس يترتب عليه السلوك العملي الصادر عن الإنسان، وهي مصدر رئيسي للإحساس بقدسية القوانين المتصلة بالأخلاق، ودافعا قويا لتحقيق تلك القوانين والتزامها...فقيمة الأخلاق الإسلامية، وأهميتها، ومميزاتها، تنبع وتنبثق من العقيدة التي ترتبط بها وتقوم عليها[٤].

إن الأخلاق في الإسلام ليست أمورًا اختيارية يمكن التلحي بها أو التخلي عنها، بل هي أصل من أصول هذا الدين الحنيف، يطلبها الإسلام والعقيدة كطلبه لبقية أركان الإسلام

---

[١] ينظر: اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية، تحقيق: د.ناصر عبد الكريم العقل (٢/٣٦٥ ــ٣٧٨)، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط٧، ١٤١٩هـ.

[٢] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب، حديث رقم (١٤٣).

[٣] تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن المباركفوري (٦/٣٣٨)، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

[٤] ينظر: الأخلاق الإسلامية وأصولها العقدية بين ابن مسكويه وابن تيمية، إيمان يحي مطهر (١/٣٠)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤١٨هـ.

والإيمان جميعًا، والإسلام قد غذَّى أصوله بالأخلاق، وصبغها جميعا بالصبغة الأخلاقية، فالعقائد والعبادات والمعاملات التي كلَّف الله بها عباده، لا يكون العبد مؤديا لها على الوجه الذي أراده الله تعالى ما لم تكن الأخلاق الفاضلة غامرة لها.

والسؤال الآن: ألا يمكن أن يكون للناس أخلاق طيبة بلا عقيدة؟

نعم، قد يوجد أخلاق عالية مثلى كما كانت عند عرب قد يوجد أخلاق عالية مثلى كانت عند عرب الجاهلية وعند المجتمعات غير المسلمة أحياناً، ولكن هذا سببه أن النفس تحتجز رصيدها الخلْقي بحكم العادة والتقليد أمداً طويلاً، بعد أن تكون قد فقدت الإيمان كجزء من العقيدة، وقد تحتجزه فترة على وعي منفصلاً عن العقيدة، على أنه شيء ينبغي في ذاته أن يقوم.

ولكن النتيجة الحتمية واحدة في النهاية: إنه ما دامت العقيدة قد انحرفت فلا بد أن تنحرف الأخلاق أخيراً، وما دامت الأخلاق قد انفصلت عن العقيدة فلا بد أن تموت.

وغاية المسلم الأساسية في أخلاقه، أن يحقق مرضاة ربه، ذلك أن هدف المؤمن الأول من أعماله كلها هو ابتغاء وجه الله جل وعلا فقد أمره الله سبحانه بذلك، ووعده بالجزاء الأوفى على أعماله الخيرة يوم القيامة، قال تعالى: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة:٧ ــ ٨].

كما أن المسلم يحقق سعادته في الدنيا؛ يقول تعالى: { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} [النور:٥٥].

وإذا تفحصنا العلاقات الاجتماعية في حياتنا المعاصرة نجد أن الاضطراب في السلوك هو الظاهرة السائدة، وأن الابتعاد عن الاستقامة دليل واضح ومؤشر قوي على ابتعاد الناس عن صفاء عقيدتهم المؤثرة والتزامهم المنضبط بتوجيهاتها.

إن الإيمان والعقيدة حقيقةٌ، وكلُّ حقيقة لها علامة، وعلامة الإيمان العمل به، والتخلق بموجباته، فإذا دخل الإيمان القلوب واستقر فيها نبضت بالحيوية، ودفعت النفوس إلى العمل بموجبها، والاختبار في هذا قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} الآية [آل عمران : ٣١].

فمعيار صدق الإيمان هو العمل الصالح، والإيمان ما وقر في القلب وصدَّقه العمل، والاعتقاد الصحيح يدفع إلى السلوك الطيب والخلق الحسن[1].

[1] ينظر: أثر العقيدة في توجيه السلوك والأخلاق، محمد الناصر، مجلة البيان، العدد (٤٢) ص (٢٣)، صفر ١٤١٢م.

المبحث الثاني

نماذج من أخلاقيات الإسلام وصلتها بالعقيدة

لقد صبغت الشريعة الإسلامية الأخلاق بالصبغة الإيمانية العقائدية، وثمة نماذج كثيرة من الأخلاق والقيم الرفيعة السامقة التي ربطتها الشريعة بشعب الإيمان، وحقائقه، ودرجاته، فمن جملة الأخلاق: خلق الإخلاص، والتوكل، والتعظيم لله سبحانه، ومحبته، والإحسان والمراقبة، والحياء، والإنابة والخشية...إلخ

لكنَّا سنقتصر في هذا البحث على ذكر نماذج من هذه الأخلاق؛ لعلَّها تشير إلى بقية الأخلاق وصلتها بالعقيدة والإيمان، ومن هذه النماذج:

أولاً: خلق الإخلاص:

وهو أن يفرد الله سبحانه وتعالى في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد العبد بطاعته التقرب إليه سبحانه، دون أي شيء آخر من تصنع لمخلوق، أو اكتساب محمدة عند الناس، ويضاده التشريك في الإلهية[١].

وهو من أعلى مراتب الأخلاق مع الله تعالى، وضدُّه من أسوأ الأخلاق وأخسِّها؛ بأن يلتفت القلبُ لغير الله، أو أن يقصدَ سواه، وهو سبحانه المتفرد بالخلق، والرزق، والملك والتدبير، وبيده وحده النفع والضر[٢].

والإخلاص هو جوهر الأخلاق الإيمانية، كونه يترتب عليه المدح والثواب لجميع الأخلاق الحسنة، فأي خُلُقٍ يستلزم الإخلاص لله تعالى، بل إن الله تعالى لا يقبل العمل ــ أي عملٍ ــ حتى يجمع ركنين: أن يكون خالصًا، وأن يكون صوابًا موافقًا للشريعة[٣].

وقد جاءت النصوص دالَّة على فضل الإخلاص والأمر به، منها قوله تعالى: {وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} [الأعراف:٢٩]، وقال سبحانه: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} [الزمر:٣] وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى..."[٤].

---

[١] ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي (٩١/٢)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤١٦ هـ.

[٢] ينظر: موسوعة الأخلاق، تأليف خالد بن جمعة الخرَّاز (١٢١)، مكتبة أهل الأثر، الكويت، ط١، ١٤٣٠هـ.

[٣] ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢٠٥/٥).

[٤] أخرجه البخاري في أول صحيحه، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: إنما الأعمال بالنيات"، حديث رقم (١٩٠٧).

فقد أناط صلى الله عليه وسلم بالإخلاص كل عمل يمكن أن يؤديه المرء عبادةً لله تعالى، فلا يقبل منه عمل إلا ما كان خالصًا لوجهه سبحانه؛ لأن تقدير الحديث: إنما قبول الأعمال بخلوص النيات[١]، وقوله عليه الصلاة والسلام: "ثلاث لا يُغلُّ[٢] عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله..." الحديث[٣].

وفي معرض التحذير من عدم الإخلاص؛ بالرياء أو الشرك، أو جلب مدح الناس ووجوههم نجد قوله عليه الصلاة والسلام عن رب العزة تبارك وتعالى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه"[٤]، وقوله صلى الله عليه وسلم: "من سمَّع، سمَّع الله به، ومن يرائي، يرائي الله به"[٥].

فجملة هذه النصوص وغيرها تدلنا على أهمية هذا الخُلُق، وضرورته لقبول الأعمال، وأنَّ التلبس بضده من الرياء أو السمعة يُذهب الأجر، ويوجب الوزر، وما ذاك إلا لأن القلوب هي محل نظر الله، وهو أعلم سبحانه بمن يريد وجهه.

ثانيًا: خلق المحبة:

والمحبة هي إرادة ما تراه أو تظنه خيرا، أو هي: ميل النفس إلى الشيء الملائم[٦].

يقول ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) رحمه الله: "إنَّ المحبّة ضروب؛ فأفضلها محبّة المتحابّين في الله عزّ وجلَّ: إمّا لاجتهاد في العمل، وإما لاتّفاق في أصل النِّحلة والمذهب، وإمَّا لفضل علم يمنحه الإنسان، ومحبَّة القرابة، ومحبَّة الألفة، ومحبَّة الاشتراك في المطالب..."[٧].

---

[١] ينظر: فتح الباري، لابن حجر (١/١٠ــ١٥).

[٢] يغلُّ: من الإغلال، وهي الخيانة في كل شيء.

[٣] أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، حديث رقم (٢٦٥٨)، وقال: حسن صحيح.

[٤] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله تعالى، حديث رقم (٢٩٨٥).

[٥] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة، حديث رقم (٦٧٣٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، حديث رقم (٢٩٨٧).

[٦] ينظر: المفردات، للراغب الأصفهاني (٢١٤)، والذريعة إلى مكارم الشريعة ، للراغب الأصفهاني، تحقيق: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي (٢٥٦)، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ.

[٧] طوق الحمامة، لابن حزم، تحقيق: د. إحسان عباس (٩٥)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢،١٩٨٧م.

والمحبة من أجلِّ الأخلاق الإيمانية؛ لأنها أصل كل عمل ومبدؤه، فلا يكون الفعل إلا عن محبة وإرادة، وكذا الترك لا يكون إلا عنها، ولهذا كان رأس الإيمان "الحبُّ في الله والبغضُ في الله"، وكان من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان[1]".

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذا الخلق الجليل "المحبة": "جماع القرآن هو الأمر بمحبة الله تعالى ولوازمها، والنهي عن محبة غيره سبحانه ولوازمها، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين، وذكر قصص أهل النوعين"[2].

وذلك بمثل قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...} [التوبة:٢٤].

فهذه المحبة هي دليل الإيمان بالله تعالى، وإيثاره على ما سواه، كما قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} [البقرة:١٦٥].

كما يقتضي هذا الخُلُق محبة المؤمنين بعضهم لبعض، لما بينهم من رابطة قوية هي أقوى من كل رابطة عرقية أو نسبية، وهي رابطة الإيمان التي جعلتهم أخوة متحابين.

يقول ابن بطال (ت ٤٤٩ هـ) رحمه الله: "فإن قال قائل: فأخبرنا عن الحب في الله والبغض فيه أواجب هو أم فضل؟ قيل: بل واجب، هو قول مالك. فإن قيل: وما الدليل على ذلك؟ قيل: ما رواه الأعمش عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله: "والذى نفسى بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا[3] حتى تحابوا، ألا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم، افشوا السلام بينكم"[4]، وما أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم فعليهم العمل به، ألا ترى أنه أقسم عليه السلام جهد النية أن الناس لن يؤمنوا

---

[1] هذا من سياق الحديث الذي أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، حديث رقم (٤٦٨١)، وقال الألباني: صحيح.

[2] قاعدة في المحبة، لابن تيمية (١١).

[3] قال الإمام النووي في شرح مسلم (٣٦/٢) "هكذا في جميع الأصول والروايات (ولا تؤمنوا) بحف النون من آخره وهي لغة صحيحة. أ.هـ

[4] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان...، حديث رقم (٥٤).

حتى يتحابوا، ولن يدخلوا الجنة حتى يؤمنوا، فحق على كل ذي لب أن يخلص المودة والحب لأهل الإيمان"[١].

ــ ويقول ابن تيمية رحمه الله مبيناً العلاقة الوثيقة بين محبة المؤمنين بعضهم لبعضن ومحبتهم لله تعالى: "إنّك إذا أحببت الشّخص لله كان الله هو المحبوب لذاته فكلّما تصوّرته في قلبك، تصوّرت محبوب الحقّ فأحببته، فازداد بذلك حبّك لله"[٢].

وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[٣].

ــ ونشير هنا إلى أمر مهم نورده هنا ابتداءً بما يغني عن تكراره، وهو: "إذا لم يحب لأخيه ما يحبه لنفسه فهل فهو كافر؟

لا؛ ولكن نقول: إنه لم يؤمن الإيمان الكامل؛ وذلك لأن الإيمان يتفاوت أهله فيه، فيكون منهم من هو كامل الإيمان، ومنهم من هو ناقص الإيمان، فهذا كمال، وهو استيفاء هذه الخصال ونحوها.

وكذلك الأحاديث التي فيها حث النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن أن يفعل خصالاً، كقوله: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت"[٤]، المعنى: أن هذه من خصال المؤمن الذي يؤمن بالله واليوم الآخر، فيدل على أن من لم يفعلها فإنه ناقص إيمانه بالله وباليوم الآخر، ويقال كذلك في الخصال التي ذكر فيها الإيمان"[٥].

وهنا يتضح لنا سموٌ خلق المحبة في الإسلام، وأن المحبة الخالصة الصادقة تكون لوجه الله تعالى لا لأجل جاه أو مال أو دنيا، فهذه المحبة الخالصة هي من أعظم ما تستقيم به العلاقات سواء بين الأخوة، أو الزوجين، أو الشريكين، وكم نحن بحاجة لتعزيز هذا الخلق في واقعنا المعاصر!

---

[١] شرح صحيح البخاري، لابن بطال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم (٢٣٧/٩ــ ٢٣٨)، مكتبة الرشد، ط٢، ١٤٢٣هـ.

[٢] مجموع فتاوى ابن تيمية، دراسة وتحقيق: عبد الرحمن بن قاسم (٤٢/١٦٧).

[٣] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لخيه ما يحب لنفسه (١١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (٤٥).

[٤] سيأتي تخريجه.

[٥] شرح العقيدة الطحاوية، عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن جبرين ، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، الدرس رقم (١٠٠).

ثالثًا: خلق الحياء:

قال ابن مفلح الحنبلي (ت ٧٦٣ هـ) رحمه الله: "وحقيقة الحياء خلق يبعث على فعل الحسن وترك القبيح"[١].

و"الحياء قسمان: غريزيّ، ومكتسب. والحياء المكتسب: هو الّذي جعله الشّارع من الإيمان، وهو المكلّف به دون الغريزيّ، وقد ينطبع الشّخص بالمكتسب حتّى يصير كالغريزيّ"[٢].

ويتولد خلق الحياء "من امتزاج التّعظيم بالمودّة، فإذا اقترنا تولّد بينهما الحياء... فالعبد متى علم أنَّ الرَّبَّ تعالى ناظر إليه أورثه هذا العلم حياء منه سبحانه، فيجذبه إلى احتمال أعباء الطّاعة"[٣].

"وخلق الحياء من أفضل الأخلاق وأجلِّها وأعظمها قدرًا وأكثرها نفعًا، بل هو خاصَّة الإنسانيَّة، فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانيَّة إلا اللحم والدَّم وصورتهما الظّاهرة، كما أنّه ليس معه من الخير شيء، ولولا هذا الخلق لم يقر الضَّيف، ولم يوف بالوعد، ولم تؤدَّ أمانة، ولم تقض لأحد حاجة، ولا تحرَّى الرَّجل الجميل فآثره، والقبيح فتجنَّبه، ولا ستر له عورة، ولا امتنع من فاحشة.

وكثير من النَّاس لولا الحياء الذي فيه لم يؤدَّ شيئا من الأمور المفترضة عليه، ولم يرع لمخلوق حقًّا، ولم يصل له رحما، ولا برَّ له والدًا؛ فإنَّ الباعث على هذه الأفعال إمَّا دينيّ، وهو رجاء عاقبتها الحميدة، وإمّا دنيويّ علويّ، وهو حياء فاعلها من الخلق"[٤].

ــ وخلق الحياء من الإيمان، فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان"[٥].

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "...الحياء من الإيمان"[٦]

---

[١] الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح الحنبلي (٢٢٧/٢)، عالم الكتب، د.ت.

[٢] موسوعة نضرة النعيم (١٧٩٨/٥).

[٣] مدارج السالكين، لابن القيم، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي (٢٥٣/٢) وما بعدها.

[٤] مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن القيم (٢٧٧/١)، دار الكتب العلمية، بيروت. د.ت.

[٥] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، حديث رقم (١١/١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، حديث رقم (٣٥).

[٦] أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان، حديث رقم (١٤/١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، حديث رقم (٣٦).

ونقل الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) عن أبي عبيد الهروي (ت ٤٠١ هـ) قوله: "معناه أن المستحيي ينقطع بحيائه عن المعاصي، وإن لم يكن له تقية، فصار كالإيمان القاطع بينه وبين المعاصي".

ونقل عن القاضي عياض (ت ٥٤٤ هـ) قوله: "إنما جعل الحياء من الإيمان وإن كان غريزة؛ لأن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى اقتصاد واكتساب وعلم"[١].

ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "الحياءُ من الإيمان، والإيمان في الجنة..."[٢].

فهذه النصوص كلها ترسِّخ في المسلم قيمة التمسك بخلق الحياء، وتُعْلِمُنَا بأنه عبودية لله تعالى، وأنه جزء أصيل من إيمان المسلم الموصل لرضا الله وجنته.

رابعًا: خلق حسن الجوار:

والجار في اللغة يطلق على معانٍ، منها: المجاورة في المسكن، والشريك في العقار، والذي يجير غيره، والذي يطلب الأمان، ويطلق على الحليف والناصر...[٣].

والإحسان إلى الجار يتضمن أمورًا كثيرة، منها: حفظ حقوقه العامة، والإهداء له، ومواساته عند الحاجة، وتفقد أحواله، ومساعدته ونفعه، والإحسان إليه وإكرامه، واجتناب أذيته، والصبر على سوء جيرته...إلخ[٤]

وإن حسن الجوار مما ورد تعظيم الشريعة له، بل جُعِلَ مقرونا بالأمر بإفراد العبودية لله تعالى، وبر الوالدين، وصلة الرحم، قال سبحانه: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} [النساء:٣٦].

ـ وقال صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليحسن إلى جاره"[٥].

ـ كما أن عدم إيصال الأذى إلى الجيران بالقول أو الفعل أو الإشارة، علامةٌ على الإيمان بالله تعالى، وحسن الاعتقاد، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم:

---

[١] فتح الباري، لابن حجر (٥٢٢/١٠).

[٢] أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الحياء، حديث رقم (٢٠٠٩)، وقال: حسن صحيح.

[٣] ينظر: المصباح المنير (١٢٤/١)، وتاج العروس (١١١/٣).

[٤] ينظر: موسوعة الأخلاق، تأليف: خالد بن جمعة الخرَّاز (٣٧٢، ٣٧٦).

[٥] أخرجه مسلم صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار، حديث رقم (٤٨).

قال صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره..."[١].

ويقول عليه الصلاة والسلام: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن. قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه"[٢].

ــ بل إن الجار غير المسلم مأمور معه بحسن الجوار، والعدل، والمسالمة؛ قال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة:٨].

قال ابن جرير (ت ٣١٠ هـ) رحمه الله: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، من جميع أصناف الملل والأديان أن تبرُّوهم وتصلوهم، وتقسطوا إليهم"[٣].

يقول الألباني (ت١٤٢٠هـ) رحمه الله تعليقاً على الآية المذكورة: "فهذه الآية صريحة في الأمر بالإحسان إلى الكفار المواطنين الذين يسالمون المؤمنين ولا يؤذونهم والعدل معهم"[٤].

فهذه الآيات وتلك الأحاديث وغيرها تدل على أن المتخلق بهذا الخلق الكريم "خلق حسن الجوار" ثابت الإيمان، ممتلئ القلب باليقين بالله تعالى ومراقبته له سبحانه، فسلوكه تجاه جيرانه إنما هو ثمرة لما يحمله من معتقد، وما يدين به من دين، وهكذا؛ فعقيدة أهل السنة والجماعة (عقيدة السلف) تحمل أهلها على مكارم الأخلاق، وتردعهم عن مساوئها.

خامسًا: خلق البرِّ:

إن حسن الخلق هو الجامع لكل معاني البرِّ، الذي هو اسم جامع لكل معاني الخير: الاعتقادية والتعبدية، والتعاملية، قال تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، حديث رقم (٥٦٧٢)، ومسلم صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار، حديث رقم (٤٧).

[٢] بوائقه: جمع بائقة وهي الظلم والشر والشيء المهلك، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، حديث رقم (٥٦٧٠)، ومسلم صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، حديث رقم (٤٦).

[٣] جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر (٨/٥٥٠)، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ.

[٤] السلسلة الصحيحة (٧٠٤).

وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ...} الآية [البقرة:٧٧].

قال ابن كثير عن هذه الآية: "من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله"(١). وقال غيره من عمل بهذه الآية فقد كمل إيمانهم، لأنهم صدقت نياتهم فاستقامت قلوبهم بأعمالهم(٢).

وقال القرطبي رحمه الله: "هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام؛ لأنها تضمنت ست عشرة قاعدة"(٣). ثم شرع في بيان تلك القواعد من الإيمان بالله...إلى الصدق والتقوى والإحسان...

هذا، ويجمع كل معاني البرِّ التي جاءت الآية آنفا لتعدادها قوله صلى الله عليه وسلم: "البرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس"(٤).

قال ابن القيم رحمه الله: "قابل البرَّ بالإثم، وأخبر أن البرَّ حسن الخلق، وهذا يدل على أن حسن الخلق هو الدين كله، وهو حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام، ولهذا قابله بالإثم"(٥).

وإنما كان جامعًا لكل تلك المعاني "لأن حُسنَ الخلق يراد به التخلق بأخلاق الشريعة، والتأدب بآداب الله تعالى التي أدَّب بها عباده في كتابه، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، فالدين كله خُلُق"(٦).

سادسًا: خلق إكرام الضيف:

الضيافة من الأمور التي لا يكاد يستغني عنها المرء في حياته ضيفًا أو مستضيفًا، لضرورة الحياة الاجتماعية التي يحياها، وقد عني الإسلام بها عناية كبرى، برزت من

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤٨٦/١).

(٢) تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، للسمرقندي (١٠٨/١)، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش (٢٤١/٢)،دار الكتب المصرية – القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تفسير البر والإثم، حديث رقم (٢٥٥٣).

(٥) مدارج السالكين، لابن القيم، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي (٢٩٢/٢).

(٦) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، لابن رجب، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس (٩٩/٢)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤٢٢هـ.

خلال سياقات القرآن الكريم، وهو يمدح كرم خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام مع أضيافه[١].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فبعث إلى نسائه فقلن ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يضم أو يضيف هذا. فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيئي طعامك وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك، إذا أرادوا عشاء. فهيأت طعامها وأصبحت سراجها ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته؛ فجعلا يريانه أنهما يأكلان فباتا طاويين فلما أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ضحك الله الليلة أو عجب من فعالكما. فأنزل الله {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}"[٢] [الحشر:٩].

وهذا الخلق الكريم "إكرام الضيف" إنما هو من خصال الإيمان، وحسن المعتقد، واقتفاء أثر الأنبياء والمرسلين، فلا عجب أن يربطه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان والعقيدة فيقول: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام فما بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يحرجه"[٣].

قال الحليمي (ت ٤٠٣ هـ): "وإكرام الضيف أن يلقاه صاحب البيت بالطلاقة والبشر، ويحضر ما يحتاج إليه قبل الوقت الذي يتوقعه فيه، وأحسن وأوفر بما جرت به عادته مع أهله وولده، ويثويه أوسع ما عنده من الأماكن وأنزهها وأشرحها لصدره، وأسنحها في الشتاء، وأدوجها في الصيف، ويفرش مجلسه ومرقده أحسن وأنعم مما يفرشه لنفسه..."[٤].

---

[١] ينظر: الآيات [هود:٦٩، ٧٠]، [الذاريات:٢٤ـ٢٧].

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب ويؤثرون على أنفسهم، حديث رقم (٣٥٨٧).

[٣] يثوي: يقيم، يحرجه: يضيق عليه حسا ومعنى، والحديث: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه، حديث رقم (٥٧٨٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف...، حديث رقم (٤٨).

[٤] المنهاج في شعب الإيمان، للحليمي، تحقيق: حلمي محمد فودة (٣/٣٦٠)، دار الفكر، ط١، ١٣٩٩هـ.

فعلى مدَّعي الإيمان أن يبرهن على إيمانه بتحقيق هذا الخُلُق؛ بأن يكرم ضيفه بما يقدر عليه من أنواع الإكرام؛ بحيث لا يبخل عليه بما يقدر على إيجاده، ولا يتكلف ما لا يقدر عليه.

فثمة صلة وثيقة بين الإيمان والعقيدة والأخلاق، فكلما كان الإيمان صحيحاً قوياً أثمر أخلاقاً حميدة، لذلك إذا ورد الحثّ على الخير نادى الله تعالى عباده باسم الإيمان، لينبههم إلى تلك الصلة التي لا تنفصم بينهم إلا بانتفاءِ الإيمان أو نقصانه، أو الدلالة على عدم تحققه في نفس من ترك فعل الخيرات، وقارف المنكرات.

وإذ نحن ذكرنا بعضًا من نماذج أخلاقية وصلتها بالعقيدة والإيمان، إلا أن المجال يضيق عن تتبع النصوص الدالة على وثاقة هذه العلاقة ومتانتها، ودلالتها؛ ومن جملة هذه النصوص غير ما ذكرناه، منافاة الأخلاق السيئة للإيمان الكامل:

١- منافاة الكذب والإخلاف والخيانة للإيمان: قال عليه الصلاة والسلام: "ثلاث من كنَّ فيه فهو منافق، وإن صام وصلَّى وزعم أنه مسلم: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وائتمن خان"[١].

٢- منافاة سوء الظن والتجسس والغيبة للإيمان: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} [الحجرات:١٢].

٣ــ منافاة السخرية والاستهزاء للإيمان : قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الحجرات:١١].

٤- منافاة إيذاء الجار للإيمان: قال صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره."[٢].

---

[١] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، حديث رقم (٥٩).

[٢] سبق تخريجه.

وتتأكد علاقة الأخلاق بالإيمان فيما ورد في الحديث: "الإيمان بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان"[1].

فالإيمان شعب، ويزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، وأهل الإيمان يتفاضلون ويتفاوتون في درجات الإيمان، وإذا كان الحياء شعبة من الإيمان فعدم الحياء شعبة من شعب الكفر، وقس على ذلك الكذب والغدر...إلخ

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، حديث رقم (٣٥).

المبحث الثالث

عناية أئمة السلف بالأخلاق وربطها بالعقيدة

ونتناول في هذا المبحث جانبين، الجانب النظري: من خلال بيان أقوال السلف وأئمة الإسلام عن خُلُق المسلمين لا سيما أهلَ السنة والجماعة، وما ينبغي عليهم الاتصاف به، أو التخلي عنه من الأخلاق والسلوك؛ ودلالة إبراز ذلك في كتب العقيدة لديهم، والجانب الآخر هو الجانب التطبيقي: لما يمثل صورة حية لهذه الأخلاق.

أولا: الجانب النظري:

أولى أئمة أهل السنة والجماعة في كتب العقائد هذا الباب عناية خاصة، وجعلونه مما يرتبط بالعقيدة ارتباطا وثيقًا.

ولم يكتفِ السَّلفُ بالتنظير لمنزلة الجانب الأخلاقي من الدين فحسب، بل جاؤوا ببعض هذه الأخلاقيات التي يجبُ التحلِّي بها، وأخرى يجب الاحتراز منها، وبيان ذلك فيما يلي:

أ ــ الأخلاق الحميدة الواجب التحلي بها:

أبان علماءُ أهل السنة والجماعة في مصنفاتهم بعضَ الصفات الأخلاقية الحميدة التي يجب التحلي بها؛ من ذلك:

ــ ما ذكره الإمامُ الطحاوي (ت ٣٢١هـ) قائلاً: "ونحبُّ أهلَ العدل والأمانة، ونبغض أهلَ الجور والخيانة"[١].

"وهذا من كمال الإيمان وتمام العبودية، فإن العبادة تتضمن كمال المحبة ونهايتها، وكمال الذل ونهايته؛ فمحبة رسل الله وأنبيائه وعباده المؤمنين من محبة الله...وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم: "ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار"[٢]...والحبُّ والبغضُ يكون بحسب ما فيهم من خصال الخير والشر"[٣].

---

[١] شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: أحمد محمد شاكر (٣٧٦).

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من كره أن يعود في الكفر، حديث رقم (١٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، حديث رقم (٤٣).

[٣] شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: أحمد محمد شاكر (٣٧٦ــ ٣٧٧).

وتكلَّموا أيضًا في النصيحة للمسلمين، وبيان حكم من يكتم النصح لأهل الإسلام، فالنصح من شأنه انتشار إشاعة المحبة وانتشار الخير ودحر الشر، لذا كان شأنه عظيمًا في الإسلام:

ــ يقول الإمام البربهاري (ت٣٢٩هـ): "ولا يحلُّ أن تكتمَ النصيحة للمسلمين، بارِّهم وفاجرهم في أمرِ الدين، فمن كتم فقد غشَّ المسلمين، ومن غش المسلمين فقد غشَّ الدين، ومن غش الدين فقد خان اللهَ ورسولَه والمؤمنين"[١].

ــ وتأكيدًا على الأخلاقِ التي من شأنها إشاعة المحبة بين المسلمين، تكلَّم العلماءُ عن خُلُقِ "إفشاء السلام" ، لما له من أثرٍ في إشاعة الود والألفة بين المسلمين، وتأكيدًا لقول النبي صلَّى الله عليه وسلَّم: "ألا أدلُّكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم؛ أفشوا السَّلامَ بينكم"[٢]، ومن هنا قال الإمامُ البربهاري تأصيلاً لهذا الخلق وبيانًا لمنزلته من الدين، وأن من صفات المسلمين: "التسليم على عباد الله أجمعين"[٣].

ب ــ الأخلاق الذميمة الواجب تركها:

لم يكتف السَّلفُ بذكر الأخلاق الحميدة فحسب، بل ذكروا طرفًا من الأخلاقياتِ الذميمة التي يجب الاحتراز منها؛ من ذلك:

ــ ما ذكره الإمامُ المزني (ت٢٦٤هـ) رحمه الله بقوله: "اجتناب المحارم، والاحتراز من النميمة، والكذب، والغيبة، والبغي بغير الحق، وأن يُقال على الله ما لا يعلم ــ كلُّ هذا كبائر مُحرَّمات، والتحري في المكاسبِ والمطاعم والمحارم والمشارب والملابس واجتناب الشهوات؛ فإنها داعيةٌ لركوب المحرمات، فمن رعى حول الحمى فإنه يوشكُ أن يواقعَ الحمى"[٤].

ــ ويقول الإمام أبو بكر الإسماعيلي (ت٣٧١هـ) رحمه الله عن أخلاق أهل الإسلام: "ويرون مجانبة البدعة والآثام، والفخر، والتكبر، والعجب، والخيانة، والدغل، والسعاية، ويرون كف الأذى وترك الغيبة إلا لمن أظهرَ بدعةً وهو يدعو إليها، فالقول فيه ليس بغيبةٍ عندهم"[٥].

---

[١] شرح السنة، للبربهاري، تحقيق: د. محمد سعيد سالم القحطاني (٣٧)، دار ابن القيم، الدمام، ط١، ١٤٠٨هـ.

[٢] سبق تخريجه.

[٣] شرح السنة، للبربهاري، تحقيق: د. محمد سعيد سالم القحطاني (٤٩).

[٤] شرح السنة، للمزني، تحقيق: جمال عزون (٩١)، مكتبة الغرباء الأثرية، السعودية، ط١، ١٤١٥هـ.

[٥] اعتقاد أئمة الحديث، لأبي بكر الإسماعيلي، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن الخميس (٧٨)، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ.

ـ ولما ظهر الإرجاء[١]، وأُضيف إليه الانحراف لدى بعض الصوفية، ومال الفسَّاقُ إلى أمثال هذه المذاهب، حذَّرَ السَّلفُ أهل الإسلام من هذه المذاهب المنحرفة، وأمروا بهجرهم:

ـ يقول الإمام البربهاري: "اعلم أنه ما عُبِد الله بمثلِ الخوف من الله، وطريقُ الخوفِ، والحزنِ والشفقاتِ والحياءِ من الله تبارك وتعالى، واحذر أن تجلسَ مع من يدعو إلى الشَّوقِ والمحبة، ومن يخلو مع النساءِ وطريق المذهب، فإنَّ هؤلاء كلهم على ضلالة"[٢].

ـ كما يقول في عدمِ طاعة أهل البدعة والانحراف: "من السنةِ ألا تطيع أحدًا على معصية الله، ولا أولي الخيرِ ولا الخلق أجمعين، لا طاعةَ لبشرٍ في معصية الله، ولا تحب عليه أحدا، واكره ذلك كله لله تبارك وتعالى"[٣].

ـ كما نقل أقوال السلف في النهي عن مجالسةِ أهل الأهواء والاستماع إليهم بقوله: "وقال سفيان الثوري: من أصغى بأذنه إلى صاحبِ بدعة، خرج من عصمة الله، ووكل إليها – يعني إلى البدع – قال داود بن أبي هند: أوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى بن عمران: لا تجالس أهلَ البدع، فإنْ جالستَهم، فحاك في صدرِك شيء مما يقولون، أكببتك في نار جهنم"[٤].

ـ ويقول ابن أبي زمنين (ت ٣٩٩هـ): "قال محمدٌ: ولم يزل أهل السنة يعيبون أهلَ الأهواء المضلة، وينهون عن مجالستِهم، ويخوفون فتنتهم ويخبرون بخلاقِهم، ولا يرون ذلك غيبةً لهم ولا طعنًا عليهم"[٥].

---

[١] المقصود بالإرجاء هنا: الذين أخَّروا العمل عن الإيمان. [ينظر: معجم ألفاظ العقيدة، تصنيف: عامر عبد الله فالح (٣٠)].

[٢] شرح السنة، للبربهاري، تحقيق: د. محمد سعيد سالم القحطاني (٤٨).

[٣] شرح السنة، للبربهاري، تحقيق: د. محمد سعيد سالم القحطاني (٢٩).

[٤] شرح السنة، للبربهاري، تحقيق: د. محمد سعيد سالم القحطاني (٦٠).

[٥] أصول السنة، لأبي عبدالله محمد بن عبدالله بن عيسى المعروف بابن أبي زَمَنين؛ تحقيق: عبدالله بن محمد عبدالرحيم بن حسين البخاري (٢٩٣)، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، ط١، ١٤١٥هـ.

ـ **هذا**، وقد عرض الإمام أحمد، والصابوني، وابن تيمية رحمهم الله عرضًا مجملا لبيان أخلاق أهل السنة والجماعة، وما يتحلَّون به من مكارم الأخلاق، وفضائل السلوك:

أ ـ قال الإمام أحمد (ت٢٤١ هـ) رحمه الله في خطبته في كتابه "الرد على الجهمية والزنادقة: "الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى فكم قتيلٍ لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائهٍ قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم..."[١].

ب ـ ويقول الإمام الصابوني (ت٤٤٩ هـ) رحمه الله تعالى في تقريره لعقيدة السلف: "ويتواصون بقيام الليل للصلاة بعد المنام، وبصلة الأرحام على اختلاف الحالات، وإفشاء السلام وإطعام الطعام والرحمة على الفقراء والمساكين والأيتام، والاهتمام بأمور المسلمين، والتعفف في المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمصرف، والسعي في الخيرات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والبدار إلى فعل الخيرات أجمع، واتقاء شر عاقبة الطمع، ويتواصون بالحق والصبر، ويتحابون في الدين ويتباغضون فيه، ويتقون الجدال في الله والخصومات فيه"[٢].

ج ـ ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال في العقيدة الواسطية عن أخلاق أهل السنة: "....يدينون بالنصيحة للأمة، ويعتقدون معنى قوله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص، يشدُّ بعضُه بعضًا، وشبك بين أصابعه"[٣]، وقوله صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد: إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر"[٤]، ويأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بالقضاء.

---

[١] الرد على الزنادقة والجهمية، للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: محمد حسن راشد (٦)، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٩٣م.

[٢] عقيدة السلف وأصحاب الحديث، للصابوني، حققه وخرَّج احاديث وعلَّق عليه: أبو اليمين المنصوري (١٠٧)، دار المنهاج، مصر، ط١، ١٤٢٣هـ.

[٣] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، حديث رقم (٢٣١٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، حديث رقم (٢٥٨٥).

[٤] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم (٥٦٦٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، حديث رقم (٢٥٨٦).

ويدعون إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويعتقدون معنى قوله صلى الله عليه وسلم: "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا"[١].

ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل، والرفق بالمملوك، وينهون عن الفخر، والخيلاء، والبغي، والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق، ويأمرون بمعالي الأخلاق، وينهون عن سفسافها، وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره، فإنما هم فيه متَّبعون للكتاب والسنة، وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمد صلى الله عليه وسلم"[٢].

ثانيًا: الجانب التطبيقي:

"إن الناظر في أخلاق علماء أهل السنة، يجد أخلاقا عالية، ونفوسا كريمة، ولعلَّ السر في ذلك هو اقتداؤهم بمن أثنى الله عليه في كتابه بقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم:٤].

أزكى الخلق، وأشرفهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذي حوى الأخلاق من جميع جوانبها؛ ولذا كان حقا على كل من يقتدي بهذا النبي الكريم أن يقتدي به في جميع شؤونه من عبادات وأخلاق.

ولعلي أشير هنا إشارات سريعة لحوادث أخلاقية رائعة سجلها لنا التاريخ، ممن سلك سبيل المرسلين، وسار على سننهم وطريقتهم، فسجلوا لنا أحداثا رائعة جدير بنا الوقوف عندها وتأملها والتفكر فيها، لعل هذه الحوادث تشعل في النفوس كوامن الأخلاق والحث على السير على طريقة أولئك الأفذاذ"[٣].

ــ يقول ابن كثير رحمه الله: "وسمعت الشيخ تقي الدين يذكر ما كان بينه وبين السلطان من الكلام لما انفردا في ذلك الشباك الذي جلسا فيه، وأن السلطان استفتى الشيخ في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموا فيه، وأخرج له فتاوى بعضهم بعزله من الملك

---

[١] سبق تخريجه.

[٢] شرح العقيدة الواسطية، لابن تيمية، للعلامة محمد خليل الهراس، ضبط نصه وخرَّج أحاديثه: علوي بن عبد القادر السقاف (٢٥٨ــ ٢٥٩)، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ط٣، د.ت، وينظر: توضيح مقاصد العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تأليف: فضيلة الشيخ عبد الرحمن البرَّاك، إعداد: عبد الرحمن بن صالح السديس (٢٣١ــ ٢٣٦)، دار التدمرية، ط٢، ١٤٣٠هـ.

[٣] تأسيس الأخلاق على العقيدة في الإسلام، حمد بن محمد الحمدان (١٢٤)، حولية مركز البحوث والدراسات الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، السنة السابعة، العدد (٢٥).

ومبايعة الجاشنكير، وأنهم قاموا عليك وآذوك أنت أيضا، وأخذ يحثه بذلك على أن يفتيه في قتل بعضهم، وإنما كان حنقه عليهم بسبب ما كانوا سعوا فيه من عزله ومبايعة الجاشنكير، ففهم الشيخ مراد السلطان فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء، وينكر أن ينال أحدا منهم بسوء، وقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، فقال له: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مرارا، فقال الشيخ: من آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح، قال: وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول: ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقدر عليه وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا[1].

ـ وقال الشيخ علَم الدِّين البِرْزالي (ت٧٣٩هـ): "ولما دخل السلطان إلى مصر يوم عيد الفطر لم يكن له دأب إلا طلب الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الإسكندرية معززا مكرما مبجلا، فوجه إليه في ثاني يوم من شوال بعد وصوله بيوم أو يومين، فقدم الشيخ تقي الدين على السلطان في يوم ثامن الشهر، وخرج مع الشيخ خلق يودعونه، واجتمع بالسلطان يوم الجمعة، فأكرمه، وتلقاه في مجلس حافل فيه قضاة المصريين والشاميين، وأصلح بينه وبينهم، ثم نزل الشيخ إلى القاهرة، وسكن بالقرب من مشهد الحسين، والناس يترددون إليه، والأمراء، والجند، وجماعة كثيرة من الفقهاء والقضاة، منهم من يعتذر إليه، ويتنصل مما وقع منه، فقال: أنا قد حاللت كل من آذاني"[2].

ـ وتأمل كلامه رحمه الله في الصفح والعفو عمن أساء إليه؛ حيث ذكر قاعدة الإسلام في الائتلاف، ونبذ الاختلاف، وكيف سلك هذه السبيل مع مَنْ أحب أو كره، ومدى تخلقه بخلق العفو والصفح؛ يقول رحمه الله ما مجمله: وتعلمون أن من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين تأليف القلوب، واجتماع الكلمة، وصلاح ذات البين، فإن الله تعالى يقول: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} [الأنفال:١]، ويقول: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران:١٠٣]، ويقول: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران:١٠٥] وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف، وتنهى عن الفرقة والاختلاف، وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة، وجماع السنة طاعة الرسول.

---

[1] البداية والنهاية، لابن كثير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي (٩٤/١٨)، دار هجر، ط١، ١٤٢٤هـ.
[2] السابق (٩٣/١٨).

وأنا لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين فضلا عن أصحابنا بشيء أصلا، لا باطنًا ولا ظاهرا، ولا عندي عتب على أحد منهم ولا لوم أصلا، بل لهم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف ما كان، كل بحسبه، ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهدا مصيبا، أو مخطئا، أو مذنبا. فالأول مأجور مشكور، والثاني مع أجره على الاجتهاد فمعفو عنه مغفور له، والثالث فالله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين.

وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي، والذين كذبوا وظلموا فهم في حلّ من جهتي، وأما ما يتعلق بحقوق الله فإن تابوا تاب الله عليهم، وإلا فحكم الله نافذ فيهم. فلو كان الرجل مشكورا على سوء عمله لكنت أشكر كل من كان سببا في هذه القضية، لما يترتب عليه من خير الدنيا والآخرة، لكن الله هو المشكور على حسن نعمه وآلائه وأياديه التي لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، وأهل القصد الصالح يشكرون على عملهم، وأهل السيئات نسأل الله أن يتوب عليهم، وأنتم تعلمون هذا من خلقي والأمر أزيد مما كان وأوكد، لكن حقوق الناس بعضهم مع بعض، وحقوق الله عليهم فيها تحت حكم الله[1].

وختامًا، اللهَ نسأل أن يرزقنا التخلقَ بأخلاق نبيه صلى الله عليه وسلم، وصحابته الأبرار، وأن يوصلنا بهذا الخلق إلى مرضاته وجناته، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والحمد لله رب العالمين.

[1] ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، دراسة وتحقيق: عبد الرحمن بن قاسم (٢٨/٥١ــ٥٣).

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- الصحاح والسنن، والمسانيد.
- أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في الكتاب والسنة، أحمد عبد العزيز الحداد، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، ١٤١٣هـ.
- الأخلاق الإسلامية وأصولها العقدية بين ابن مسكويه وابن تيمية، إيمان يحي مطهر، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤١٨هـ.
- الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح الحنبلي، عالم الكتب، د.ت.
- أصول السنة، لأبي عبدالله محمد بن عبدالله بن عيسى المعروف بابن أبي زَمَنِين؛ تحقيق: عبدالله بن محمد عبدالرحيم بن حسين البخاري، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، ط١، ١٤١٥هـ.
- أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ.
- اعتقاد أئمة الحديث، لأبي بكر الإسماعيلي، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن الخميس، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ.
- اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية، تحقيق: د.ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط٧، ١٤١٩هـ.
- الإمام في بيان أدلة الأحكام، عز الدين بن عبد السلام، تحقيق: رضوان مختار بن غربية، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.
- البداية والنهاية، لابن كثير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط١، ١٤٢٤هـ.
- تأسيس الأخلاق على العقيدة في الإسلام، حمد بن محمد الحمدان، حولية مركز البحوث والدراسات الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، السنة السابعة، العدد (٢٥).
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- التربية الأخلاقية، مقداد يالجن، رسالة دكتوراه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٧٧م.

- تسهيل النظر وتعجيل الظفر، للماوردي، تحقيق د. محيي هلال السرحان، بيروت، ١٩٨٣م.
- تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، للسمرقندي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ .
- تهذيب الأخلاق لابن مسكويه، دار الكتب العربية، بيروت، ط ٢، ١٤٠١ هـ، ١٩٨١م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ.
- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير الدمشقي، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ.
- توضيح مقاصد العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تأليف: فضيلة الشيخ عبد الرحمن البرَّاك، إعداد: عبد الرحمن بن صالح السديس، دار التدمرية، ط٢، ١٤٣٠هـ.
- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ.
- جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ.
- جامع العلوم والحكم، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، دار المعرفة – بيروت، ١٤٠٨هـ.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم الأصفهاني، طبعة دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ت.
- الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني، تحقيق: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ.
- الرد على الزنادقة والجهمية، للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: محمد حسن راشد، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٩٣م.
- شرح العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تأليف العلامة: محمد خليل هراس، راجعه: الدكتور عبد الرزاق عفيفي، من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط٤، د.ت.

- شرح العلامة ابن عثيمين على لمعة الاعتقاد، لابن قدامة المقدسي، حققه وخرج أحاديث: أشرف بن عبد المقصود، مكتبة دار طبرية، الرياض، ط٣، ١٤١٥هـ.
- شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية لابن عثيمين، خرج أحاديثه: سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط٦، ١٤٢١هـ.
- شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مطبوعات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤١٨هـ.
- شرح صحيح البخاري، لابن بطال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، ط٢، ١٤٢٣هـ.
- شرح العقيدة الطحاوية، عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن جبرين ، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.
- شرح السنة، للبربهاري، تحقيق: د. محمد سعيد سالم القحطاني، دار ابن القيم، الدمام، ط١، ١٤٠٨هـ.
- شرح السنة، للمزني، تحقيق: جمال عزون، مكتبة الغرباء الأثرية، السعودية، ط١، ١٤١٥هـ.
- طوق الحمامة، لابن حزم، تحقيق: د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢،١٩٨٧م.
- العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، بيروت، لبنان، ط٢، ١٣٩٩هـ.
- عقيدة السلف وأصحاب الحديث، للصابوني، حققه وخرَّج احاديث وعلَّق عليه: أبو اليمين المنصوري، دار المنهاج، مصر، ط١، ١٤٢٣هـ.
- فتح الباري، لابن حجر، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب، رقَّم أحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، د.ت.
- الفلسفة بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية، د. مصطفى حلمي، دار الدعوة للنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر العربية، ط٢، ١٤١١هـ.
- الفوائد، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٣هـ.
- القاموس المحيط، للفيروز آبادي، دار الفكر.
- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت.
- مدارج السالكين، لابن القيم، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤١٦هـ.

- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت. د.ت.
- مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة، وموقف الحركات الإسلامية المعاصرة منها، د. ناصر بن عبد الكريم العقل، دار الوطن للنشر، ط١، ١٤١٢هـ.
- معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ.
- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان، دار القلم الشامية، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ.
- المنهاج في شعب الإيمان، للحليمي، تحقيق: حلمي محمد فودة، دار الفكر، ط١، ١٣٩٩هـ.
- الموافقات، للشاطبي، تحقيق: مشهور بن حسن، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ.
- مجموع فتاوى ابن تيمية، دراسة وتحقيق: عبد الرحمن بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الإصدار الثاني، ١٤١٦هـ.
- موسوعة الأخلاق، تأليف: خالد بن جمعة الخرَّاز، مكتبة أهل الأثر، الكويت، ط١، ١٤٣٠هـ.
- موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، إعداد مجموعة من المختصين، بإشراف: صالح بن حميد، عبد الرحمن ملُّوح، دار الوسيلة، ط١، ١٤١٨هـ.
- النظرية الخلقية عند ابن تيمية، محمد عبد الله عفيفي، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ط ١، ١٤٠٨ هـ– ١٩٨٨م.